

طه حسين و « مستقبل الثقافة فى مصر »

قراءة حرة فى نص تنويرى

للدكتور محمود الربيعى

- ١ -

يقع كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " فى مرحلة وسطى من إنتاج طه حسين . كتب قبله - من أعماله الأساسية - " حديث الأربعاء " ، و " فى الشعر الجاهلى " ، و " على هامش السيرة " ، و " مع المتنبى " ، وكتب بعده " مع أبى العلاء فى سجنه " ، و " الفستنة الكبرى " ، و " الشيخان " . وكان عمره حين كتب هذا الكتاب حوالى خمسين عاما ، أى فى ذروة نضجه العقلى .

وقد ذكر طه حسين سببين لتأليف الكتاب أحدهما سياسى خطير الشأن هو توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وقد جعل ذلك المصريين يتنسمون ريح الحرية ويطلقون على المعاهدة " معاهدة الشرف والفخار " (وإن كانوا حين ألغوها بعد ذلك أطلقوا عليها " معاهدة الخزى والعار " ، وكان من عقدها هو من ألغها ، وهو مصطفى النحاس ، الذى قال عبارته الشهيرة فى تلك المناسبة : من أجل مصر عقدت معاهدة ١٩٣٦ ، ومن أجل مصر ألغى معاهدة ١٩٣٦) . ومع استشعار الاستقلال النسبى أصبح المصريون يبحثون عن " هوية " وعن " ذاتية " ، وقد حدا هذا بطه حسين - وكان صوتا جهيرا جدا فى مجال التعليم - أن

يكتب هذا الكتاب الذى يصف فيه نوع " المستقبل الثقافى " الذى يحلم به لمصر المستقلة . أما السبب الآخر لتأليف الكتاب فكان أقل شأنا ، وهو أن طه حسين كان قد أوفد فى مهمة من قبل وزارة (التعليم) لحضور مؤتمرين تعليميين فى باريس ، وبدلا من أن يعد عنهما تقريرا للجهة التى أوفدته - كما تقضى اللوائح - رأى من الخير أن يكتب كتابا فى أمر التعليم المصرى كله ، بل والثقافة المصرية كلها ، ومن الواضح أن الكتاب تجاوز هذا السبب الثانى ، أما السبب الأول فلا يمكن أن يتجاوزه كتاب أو غيره . وقد بقى كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " وثيقة ثمينة ، ونصا حضاريا تختلف حوله الأجيال ، فىرى فيه البعض قفزة ، إلى الأمام ، ويرى فيه البعض نكسة إلى الوراء ، ويقف منه البعض موقفا وسطا .

ولم يقدر طه حسين نفسه أنه يقدم فكرا يرضى عنه الجميع . لقد كان يكتب فى فترة شديدة الاضطراب (١٩٣٦ - ١٩٣٧) من النواحي السياسية والفكرية والاجتماعية ، ولا بد أنه كان على يقين من أنه يسبح - فى مواطن كثيرة - ضد التيار . ويكفى أنه

تصدى فى قسم مهم من الكتاب لمؤسستين تعليميتين عتيديتين هما الأزهر ودار العلوم ، ولم يلق بالا لما قد ينتظره من تهم أقلها تحريك " الثارات القديمة " وخاصة بالنسبة للأزهر الذى كان طه حسين قد هجره فى مطلع حياته هجرا غير جميل . وأبيات أبى العلاء التى صدر بها الكتاب دليل على كل هذا ، ودليل على أنه عازم على تحرير آرائه فى مستقبل التعليم والثقافة ، والمضى فى طريقه لا يلوى على شئ :

خذى رأى وحسبك ذاك منى

على ما فى من عوج وأمت

وماذا يبتغى المجلساء عندى

أرادوا منطقى وأردتُ صمتى

وفيما بيننا أمد بعيد

فأما سمتهم وأمت سمتى

- ٢ -

يُصدّر الكتاب بالتعبير عن نوع من الحساسية المفرطة تجاه الأوروبيين بعمامة والإنجليز بخاصة ، وهى حساسية مردها - كما يقول هو - إلى أن المصريين كانوا يمرون بعد المعاهدة بفترة اختبار وأنهم إذا لم يحسنوا هذا الاستقلال النسبى الذى أعطوه ربما عادوا

إلى نير الاحتلال من جديد . ذلك هو نوع الذى قد يستنتجه القارئ من الكتاب ، وهو تبرير لا يقع موقعا حسنا من القارئ لكتاب يقوم كله على أن العقلية المصرية جزء من العقلية الأوروبية ، وأن الاحساس المصرى ينبغى أن يكون إحساسا " بالندية " مع الغير (وإلا فما معنى إحساس الإنسان المستقل ؟) :

" وأخاف أن نقصر فى ذات أنفسنا وعلينا ، من الأوروبيين عامة ومن أصدقائنا الإنجليز خاصة ، رقباء يحصون علينا الكبيرة والصغيرة ويحاسبوننا على اليسير والعظيم . ولعلهم أن يكبروا من أغلاطنا ما نراه صغيرا ، وأن يعظموا من تقصيرنا ما نراه هينا ، وأن يقولوا طالبوا بالاستقلال وأتعبوا أنفسهم وأتعبوا الناس فى المطالبة به حتى إذا انتهوا إليه لم يذوقوه ، ولم يعرفوا كيف ينتفعون به " .

وأول سؤال حيوى يعرضه الكتاب هو :

" أمصر من الشرق أم من الغرب " (ص ٧) وهو سؤال يعنى نوعا من " الثنائية " التى ترى فى العالم نوعين ثقافيين لا ثالث لهما ، أحدهما ثقافة الغرب ، والآخر ثقافة الشرق البعيد . وهذه " الثنائية " تشير سؤالا من القارئ هو :

وأين موضع الحضارة الوسطى - وهي حضارة شرقنا العربى - من هذا التقسيم ؟ وهل تعنى الثنائية أنه ليس لهذه المنطقة "هوية حضارية" موازية لهاتين الحضارتين ؟ على أن المضى مع الكتاب خير - فى نظرى - من قطع جريانه ، والوقوف عند هذا السؤال ، ويكفى أن يثار .

يحدد الكتاب عناصر عدة تكونت منها العقلية المصرية ، منها البيئة ، ومنها التأثير بشعوب أخرى يأتى فى مقدمتها الشعب اليونانى ، ومنها الأثر الحاصل من اتصال الشعب المصرى بالرومان والفرس والمقدونيين والعرب ، ومقاومة الشعب المصرى لكل هذه الشعوب . لقد سوى طه حسين فى رفض الشعب المصرى للاستعمار الخارجى بين كل تلك الشعوب ، وحين أحس نوعا من الجور فى تلك التسوية ؛ لاتصال " العربية " بالإسلامية " ، خفف من لهجته بالنسبة للعربية ، وخص الإسلام بكلمة مختصرة ، وذلك قبل أن يخلص إلى فكرته الأساسية التى يطرحها على النحو التالى :

" فالتاريخ يحدثنا بأن مصر قاومت الفرس أشد المقاومة ، وبأنها لم تطمئن إلى المقدونيين حتى فنوا فيها ، وأصبحوا من أبنائها ،

واتخذوا تقاليدها وستنتها تقاليد وسننا . والتاريخ يحدثنا كذلك بأنها خضعت لسلطان الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على كره مستمر ، ومقاومة متصلة فاضطر القياصرة إلى أخذها بالعنف ، وإخضاعها للحكم العرفى .

" والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها على السلطان العربى بعد الفتح لم يبرأ من السخط ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة فى ظل ابن طولون .

" كذلك كانت مصر حين جاءها الإسلام أقرب ما تكون - عقلا وثقافة - إلى اليونان . فلما جاء الإسلام تقبلته بقبول حسن ، ولكنه لم يجعل منها دولة شرقية كما أن المسيحية - وهى شرقية - لم تجعل من أوربا حين اعتنقتها دولا ذات عقلية شرقية " . (ص ١٧ ، ١٨)

قبل الخلوص إلى موضوع التعليم يبدو الكتاب قاطعا حاسما فى مسألة لم يحسم الخلاف فيها على طول الزمن ، وهى مسألة الدين والدولة ، واللغة والدولة ، والعرق والدولة ؛ فطه حسين يرى دون تردد أن : "وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسا للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول " ،

ويقول : " ما من أحد يجادل فى أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضا " ، ويقول : " السياسة شئ والدين شئ آخر " (ص ١٨ / ١٦) . هذه نقاط حساسة فى الكتاب تعيد إلى الذهن كتاب على عبد الرازق " الاسلام وأصول الحكم " ، وما أثير حوله من نقاش . والواقع أن هذه النقطة بالذات هى التى أثارت أكثر المناقشات حدة وهى عصب المقالات التى كتبها حسن البنا فى مجلة " النذير " و " الفتح " بعد صدور " مستقبل الثقافة فى مصر " ، ولبعضها عناوين مثيرة من مثل " ليسمع الدكتور طه حسين " ، " أيها الشعب المسلم ماذا يراد بك ؟ " (النذير ٢ / ٦ / ١٩٣٩) والفتح ٢ / ٣ / ١٩٤٠) .

- ٣ -

يسجل طه حسين أن النموذج الأوربي يغزو الحياة المصرية ، وهو يرحب بهذا كل الترحيب ، فمصر جزء من أوربا : " والمثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي فى حياته المادية " . ولقد راود الخديو إسماعيل حلم أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، ويتسوق طه حسين إلى تحقيق هذا

الحلم على أسس فكرية وتربوية وثقافية أرسخ ، وتبلغ به الحماسة أحيانا حدا يجعله يقول : " ليس فى الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمع بالحياة على النحو الذى يستمتع بها عليه الأوربيون (ص ٣٠ / ٣١) " .

أما النموذج الأوربي فتغلغلة فى التعليم حقيقة واقعة ، وهذا الموقف يخلق نوعا من المفارقة المضحكة عند طه حسين ؛ ذلك لأن البعض يطبق النموذج الأوربي فى التعليم عملا ويعارضه نظرا ، ولو نال التعليم تغيير يحد به عن الطريق الأوربي لقاوم ذلك أكثر المعارضين علنا لهذا النظام الأوربي ، على أن المسألة فى جوهرها عنده ليست فارقا نوعيا بين الحاضر التعليمى عندنا وفى أوربا ، وإنما الفارق فى الحقيقة فارق فى الزمن ، ومن ثم فى الدرجة ، ليس غير . لقد بدءوا حياتهم الحديثة فى القرن الخامس عشر ، وبدأ ناهى فى القرن التاسع عشر ، فحياتنا التعليمية الآن شبيهة بحياتهم التعليمية ولكن من أربعة أو خمسة قرون . وقد جاد العصر الحديث على الجميع " بالتقلات " السريعة ؛ فهو خليق بأن يساعدنا على رأب هذا الصدع ، والالتحاق بركب التقدم ، والا " فويل لنا إذا لم تنتهز

هذه الفرصة ولم ننتفع بهذا التوفيق " . (ص ٣٧ ، ٣٨)
فى هذه المرحلة من الكتاب يبدو طه حسين
مليئا بالتفاؤل والحياة ، ماضيا قدما فى
طريق المستقبل ، مودعا وراءه حياة التخلف ،
مستشعرا - كما يقول - كرامة المواطن الذى
يتمتع بالاستقلال . وهو لا يرى فى اتباع
النموذج الأوربى أى قدر من التبعية للغرب .
إنما هو طريق التقدم الذى يختاره الإنسان
الحر ، لأن فيه منفعة :

" يجب أن نمحو من أنفسنا أن فى الأرض
شعوبا قد خلقت لتسودنا . ويجب أن نمحو من
أنفسنا أن فى الأرض شعوبا قد خلقت
لنسودها . ويجب أن نقر فى أنفسنا نظام
الحقوق والواجبات " (ص ٤٤)

وفى هذا الجسر القائم على المقارنة
السياسية بين ذل الماضى (ما قبل المعاهدة)
وعز الحاضر (ما بعد المعاهدة) والداعى إلى
العزة الوطنية بإنشاء مصر الحديثة يدخل طه
حسين بالكتاب إلى موضوعه الأساسى ، معلنا
أن سبيل بناء مصر الحديثة : " سبيل واحدة لاثانية
لها وهى بناء التعليم على أساس متين " (ص ٥١)

وفى البداية تثار مجموعة الاعتراضات
التي يمكن أن يثيرها المعارضون لتبني النموذج

الأوربى ، ويرد عليها طه حسين بسهولة .
وقد يقال هنا إن طه حسين يذكر من هذه
الاعتراضات ما يسهل الرد عليه . وملخص
هذه الاعتراضات : " أن الدعوة إلى الاتصال
بالحياة الأوربية على هذا النحو خليقة بأن
تغرى بما فى الحياة الأوربية من إثم وتورط بما
فيها من موقفة ، وتحرض على ما فيها من مخالفة
للدين " (ص ٥٣) ، وأن " الاتصال القربى
الصريح بأوربا قد لا يخلو من الخطر على
شخصيتنا القومية ، وعلى ما ورثناه عن ماضينا
المجيد من هذا التراث العظيم " (ص ٦٢) ، وأن
الحضارة الأوربية مادية مسرفة فى المادية . .
وهى من أجل ذلك مصدر شر كثير تشقى به
أوربا ويشقى به العالم كله أيضا " (ص ٦٥)

ومع دخولنا فى صلب الكتاب نواجه أول
مشكلة حقيقية . وتتلخص هذه المشكلة فى أن
أهداف التعليم لدى طه حسين هى الديمقراطية
والحرية ، وهو - مع ذلك - يضع مقاليد
التعليم فى يد الحكومة . والسؤال هو : كيف
يمكن أن نصل إلى التعليم الحق (الذى يفضى
إلى الحرية والديمقراطية) عن طريق وضعه
تحت سيطرة الدولة ؟ .

نحن نعلم أن توالى الحكومات المتعاقبة

- سياساتها المتباينة - يجعل اطراد تقدم التعليم فى مهب الريح ، وقد اشتكى طه حسين نفسه من تجريب الوزراء المتعاقبين سياساتهم فى جهاز شديد الحساسية هو التعليم ، واشتكى من أن الجهاز الدائم القائم على التنفيذ يتبع دائما الوزير الجديد ، ولم يستطع أن يحصى فى تاريخ خبرته الطويل سوى ثلاثة (هو واحد منهم) قالوا : لا ! (ص ١٧٨) ، فكيف يريد فى هذا الجور أن يحقق تعليما صحيحا ؟ إن التعلل بنقص الإمكانيات ، وتوزيع الأولويات فى الإنفاق على نحو توجهه السياسة ، من أبسط ما يتعرض له التعليم الواقع فى قبضة الحكومة ، وهى أمور يشتكى منها فى كل زمان ، وقد اشتكى منها طه حسين فى " مستقبل الثقافة " .

- ٤ -

إذا عقدنا مقارنة بين الجزء المخصص للتعليم العام فى " كتاب مستقبل الثقافة فى مصر " والجزء المخصص للتعليم العالى والجامعى خرجنا بنتيجة لا يختلف عليها ، هى أن ما أعطاه الكتاب للنوع الثانى لا يقاس (كما أو نوعا) بما أعطاه للنوع الأول . حقا إنه تحدث فى الكتاب عن وظيفة التعليم العالى ، ووجوب استقلال الجامعة ماليا وإداريا ،

ودورها فى خلق الثقافة وتنمية الحضارة ، ولكن روحه كلها ، وجهده كله ، بل وحلمه كله ، يبدو فى الكتاب موجها إلى التعليم الأولى والعام .

يسهب الكتاب فى شرح موضوع التعليم الأولى ، شارحا مفهومه ، ومدته ، ومناهجه ، ومواده . وهو يريد أن يوفر لهذا النوع من التعليم أفضل الوقت ، وأفضل الإمكانيات ، وأفضل الظروف ، مما يجعل القارئ بحق يخرج بانطباع قوى بأن هذا الموضوع يكون لب الكتاب . وشمول معالجة الموضوع فى الكتاب على هذا النحو تجعلنا نؤمن بأن طه حسين إنما خلق معلما (وهو أمر رده طه حسين فى بعض أحاديثه فى أخريات أيامه) . التعليم الأولى هو الأساس ، وإذا جاء الأساس ضعيفا فليس لنا أن نتوقع لأى بناء يبنى فوقه أن يكون قويا . والنقطة الوحيدة التى بدت قلقة ، وليست حاسمة كغيرها ، هى وضع الدين فى مناهج هذا التعليم . وقد يكون من بين أسباب قلق هذه النقطة ما أعلنه من قبل فى الكتاب من فصل الدين عن الدولة ، وقد يكون لاعتبارات متعلقة بعنصرى الأمة المصرية ، وقد يكون لغير ذلك . ولكن الأمر الواضح أن

هذه النقطة تحتاج فى الكتاب إلى فضل إيضاح . وما معنى هذا الكلام المتراوح بين التردد واليقين ، والذي لا يتمشى مع النبرة الواثقة التى تنتظم الكتاب كله :

" فإن رأت الدولة إقامة التعليم على الفكرة المدنية الخالصة تركت أمر الدين إلى الأسر ، ولم تقم فى سبيل تعليمه المصاعب والعقبات ، وإن رأت إقامته على الفكرة المدنية الدينية قسمت للتعليم الدينى مكانه من هذا البرنامج " (ص ١٠١)

ولما كان أمر المعلم موصولا بأمر التلميذ ، وبالمادة ، والمنهج والهدف ، فقد أعطاه طه حسين ما يليق به من الاهتمام ، وعالجه معالجة يمكن أن تصلح لوقته ، ويمكن أن تصلح لأى وقت . والواقع أن أمر المعلم كأمر التعليم يشغل كل مهتم بالتعليم ، ومع ذلك نلاحظ أن أمر المعلم هذا يبقى على حاله مع مرور الزمن ، فالناظر إلى حاله الآن يجده قريبا جدا من الحال التى صورها عليها طه حسين فى كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " . والكلمات القاسية التى يوجهها طه حسين إلى الحكومة ، أو إلى المجتمع ، أو إليهما معا ، دليل على حدة المشكلة آنذاك ، وحين نفكر فيها اليوم

ندرك أنه لم يبذل جهد حقيقى حتى للتخفيف من حدتها :

" ومن أغرب التناقض أن نزدري المعلم الأولى ، أو ننظر إليه نظرة عطف وإشفاق خير منهما الازدراء ، ثم نطلب إليه ونلج عليه فى أن يشيع فى نفوس أبنائنا العزة والكرامة والحرية والاستقلال . لا أعرف شرا على الحياة العقلية فى مصر من أن يكون المعلم الأولى كما هو الحال عندنا ، سيئ الحال ، منكسر النفس ، ومحدود الأمل ، شاعرا بأنه يمثل أهون الطبقات على وزارة المعارف شأنا " (ص ١١١)

ومع ذلك كله نلاحظ أن حديث الكتاب عن المعلم - هنا وفى مواطن أخرى - يتم فى جو عاطفى ، تساق فيه العبارات المؤازرة ماديا ومعنويا ، ولكن رسم منهج واضح لعلاج هذه الحالة ليس واضحا بالقدر نفسه : " وإذا طلبت إلى المعلم أن يكون مؤدبا بالمعنى القديم فلا يقصر جهده على صب العلم فى رأس التلميذ ، وإنما يربيته ويثقف عقله ، ويقوم نفسه ، وبهيته تهيئة صالحة للحياة العملية من جهة ، وللرقى العقلية من جهة أخرى ، فأول ما يجب عليك لهذا المؤدب أن تثق به ، وتطمئن إليه ، وتشعره بتلك الثقة وهذا الاطمئنان . فإن أنت

لم تفعل ذلك وأبيت إلا أن تندس بين المعلم وتلميذه ، وأن تشعر المعلم فى كل لحظة بأنك من ورائه تقيد أنفاسه ، وتحصى عليه الكبيرة والصغيرة ، أفسدت عليه أمره من جميع الوجوه . . . ويصبح المعلم آلة من الآلات ، وأداة من الأدوات فى هذا المصنع العتقيم السخيف الذى نسميه المدرسة . .

" أوافق أنت بأن التلميذ يحب معلمه ويحترمه ؟ أوافق أنت بأن المعلم يحب المفتش ويطمئن إليه ؟ أو اثنى أنت بأن المفتش يحب مراقبة التعليم التى يتبعها ؟ أما أنا فوافق بما يناقض هذا كله " (ص ١٧٠/١٧٤)

- ٥ -

إن طريق التعليم - كما يصوره كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " - طريق ملئ بالأشواك ، والمعوقات التى تقف فى سبيل تقدمه معوقات كثيرة ، يجئ فى مقدمتها الامتحانات ، والكتب المدرسية .

ولطه حسين فى هذين الأمرين آراء تبدو للناظر الآن " تقديمية " فى وقتها - بل حتى وقتنا - إلى حد كبير . ومن الواضح أننا لم نفلح - بعد حوالى نصف قرن من الزمان منذ أن كتب طه حسين كلامه - فى إيجاد حلول مرضية لموضوع الامتحانات ، وموضوع الكتب

المدرسية . ولطه حسين فى موضوع الامتحانات الكلام التالى :

" الأصل فى الامتحان أنه وسيلة لا غاية .. ولكن أخلاقنا التعليمية جرت على ما يناقض هذا أشد المناقضة ، ففهمنا الامتحان على أنه غاية لا وسيلة . . . وأذعنا ذلك فى نفوس الصبية والشباب وفى نفوس الأسر ، حتى أصبح ذلك جزءا من عقليتنا ، وأصلا من أصول تصورنا للأشياء وحكمنا عليها " (ص ٢٠٦) وقد أفضى هذا النوع من قلب طبائع الأمور إلى نتيجة كان لا بد أن يفضى إليها ، وهى ضياع الهدف الأسمى ، الذى هو من عظام الأمور ، وإحلال أهداف أخرى محله هى من توافه الأمور ، ولذلك - والكلام هنا لطه حسين : " لا ينبغى أن ننكر ما نراه من عناية شبابنا بالتافه من الأمر ، وإكبارهم للسخيف ، وإعراضهم عن عظام الأمور ، بل عجزهم عن الشعور بعظام الأمور والأشياء ذات الخطر . لا ينبغى أن ننكر ذلك ، لأن هؤلاء الشباب ينشأون على العناية بالامتحان وهو تافه ، وعلى إكبار الشهادة وهى سخيفة ، وعلى الإعراض عن العلم ، وهو لب الحياة وخلاصتها " (ص ١٠٩) ولقد تطور هذا الخلط الشائن بين الغايات والوسائل إلى خلط أكبر بين

التعليم والسياسة ، فجرت أمور الأول على ما أرادته الأخيرة ، وحدث هذا الذى تقشعر منه الأبدان ، وهو تملق الجماهير " باللعب " الخطر بأمر التعليم وإجراءاته . يقول طه حسين : " فإذا ظهرت نتيجة الامتحان رديئة غير مرضية لكثرة التلاميذ وكثرة الأسر بالطبع ، شاع السخط ، وعمت الشكوى ، واشتد الضغط على الحكومة ، واضطرت الحكومة إلى أن تفكر فى الأمر ، وتلتمس له علاجاً ، وعلاجها ديماجوجيا يتعلق شهوة الأسر فى نجاح أبنائها بالحق وبغير الحق " (ص ١٠٩) هذا هو نوع الكلام الخطير الذى يقوله طه حسين فى أمر الامتحان ، وهو يدل على أن التعليم لم يسلم من الشوائب التى تعكر جوه فى يوم ما ، وهو كذلك يسحب ظله البغيض على أمور التعليم كلها ، ويلقى روحاً من التشاؤم على كل محاولة فى أى جانب من جوانب الإصلاح . ويبدو أن الأمر لذلك يحتاج إلى إصلاح جذرى لموضوع الامتحان هذا ، وهو شئ تنبهت له كثير من الدول المتقدمة وغير المتقدمة . والذى يتأمل ما حوله الآن يلاحظ أن الامتحانات تفاقم أمرها منذ أن كتب طه حسين كلامه ، فزاد الحال رهبة على رهبته ،

وسممعنا عن ألوان من الغش لم تخطر لطفه حسين على بال . ولطفه حسين اقتراح محدد فى مسألة الامتحانات يفرضه على النحو التالى :

" إذا ائتمنت المعلم على التلميذ فامنحه ما يلائم هذه الأمانة من الثقة ، واطلب إليه أن يختبر تلاميذه فى المادة التى يدرسها لهم بين حين وحين ، مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر ، وأن يمنحهم درجات على هذا الاختيار ، فإذا كان آخر العام فليراجع هذه الدرجات ليرى أيستحق التلميذ أن ينتقل إلى الفرقة الأخرى . أم لا يستحق . فإن كانت الأولى أقبل التلميذ فرحاً مبتهجا على إجازته الصيفية ، ثم على عامه الدراسى الجديد ، وإن كانت الثانية امتحن التلميذ امتحان النقل فى المواد التى لابد من أن يمتحن فيها ، فإن نجح فذاك ، وإن رسب أعاد عامه الدراسى " (ص ٢١٤)

أما أمر الكتب المدرسية فلا يقل أهمية - وحاله لا يقل سوءا - عن أمر الامتحانات . و" المركزية " المعوقة تتحكم فى الكتب كما تتحكم فى الامتحان . والوزارة (على اختلاف تسميتها عبر الزمن) تريد أن تحكم قبضتها على شئ ، وهى فيما يبدو الآن تتلذذ وتفتخر

بأن يكون لها كتبها ومؤلفوها المفضلون .
ويتندر الساخرون بأمر هذه الكتب الآن - وبعد
زمن طويل مما ورد فى كتاب " مستقبل الثقافة
فى مصر " لطف حسين - بأن هذه الكتب -
وأحدث عما أعرف من أمر اللغة العربية -
قد كتبت خصيصا لتنفيذ التلاميذ من اللغة
العربية والأدب العربى ، وربما من فكرة
التعليم كلها .

ويرى طه حسين أن الوزارة لابد أن ترفع
يدها عن أمر الكتاب المدرسى ، وتقتصر
مهمتها على اختيار أحسن المتاح لتلاميذها .
وقد استخدم طه حسين فى ذلك كلمة
" التجارة " ، ولكننى أقول إنه سواء أتاشرت
الوزارة فى الكتب بالبيع والشراء ، أم
احتكرت الكتب ووزعتها مجانا فخسرت "
تجاريا " ، فإن الحال من الناحية التعليمية
التربوية هى نفس الحال :

من الذى فرض على وزارة المعارف أن توزع
الكتب والأدوات على التلاميذ ؟ لم يفرض
ذلك عليها أحد ، وإنما تبرعت به من عند
نفسها . . بل لست أقف عند هذا الحد ، وإنما
أسأل لماذا تقرر الوزارة فى هذه المادة أو تلك
كتابا بعينه تشتريه . . . حسب الوزارة أنها

ستضطر دائما إلى تموين مكتبات المدارس
ليقرأ المعلمون والتلاميذ ، ولتيسر لهم القراءة
الحرة . نعم خير نصيحة تقدم إلى وزارة المعارف
هى أن تدع التجارة للتجار ، والتأليف
للمؤلفين ، وأن تكتفى بامتحان الكتب ، والدلالة
على الصالح منها " (ص ٢٢٢ مابعدا)

من الطبيعى لكاتب تنويرى عظيم ، يؤمن
" بالتحديث " ، وبالنظام الاجتماعى المتقدم ،
وبالنموذج الغربى منه على وجه الخصوص ،
أن يعطى قدرا كبيرا من الاهتمام لأمر " اللغات
الأجنبية " حين ينظر فى شئون التعليم . ويرى
طه حسين أن التعليم الأولى كله ينبغى أن
يخلو من تعلم اللغات الأجنبية ، وكذلك الحال
بالنسبة للسنوات الأربع الأولى من المرحلة
التي تليه من مراحل التعليم .

أما فيما يلى ذلك فيلخص أمر تعلم
اللغات الأجنبية على النحو التالى :

" أنا أقسم المواد التى تدرس فى المدارس
العامة قسمين . أحدهما فرض على التلاميذ
جميعا لأنه قوام الثقافة العامة لكل مثقف
مستنير . ومن هذا القسم التاريخ والجغرافية
واللغة الوطنية والرياضية والعلوم التجريبية
كالطبيعة والكيمياء وعلم الحياة . والآخر ما

يجوز أن يختلف فيه التلاميذ وهو اللغات الأجنبية وآدابها . فكل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الرياضية أو العلمية أو للدراسات الفنية في المدارس الخاصة فرضت عليه مع هذا المقدار المشترك لغتين حيتين يختارهما بين الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية . وكل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للتخصص في اللغة العربية وآدابها فرضت عليه التعمق في درس اللغة العربية والثقافة الإسلامية وإتقان لغة أوربية حية ، وخيرته بين إحدى هاتين اللغتين الشرقيتين العبرية والفارسية . وكل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية المختلفة كالتاريخ والجغرافية والفلسفة والآداب الخالصة لإحدى اللغات فرضت عليه اللغة اللاتينية ولغة أجنبية حية وخيرته بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى " (ص ٣٠٠ ، ٣٠١)

ويشرح طه حسين وجهة نظره في وجوب التأخر في البدء بتعلم اللغات الأجنبية بأنه يريد أن يخلص قسم كبير من التعليم - في بداياته - للثقافة الوطنية ، كما أنه لا يريد أن يطفئ تعلم اللغات الأجنبية - في هذه

الفترة الحسنة من فترات التلقى - على تعلم اللغة العربية التي ترتفع الشكوى من ضعف التلاميذ فيها . وهو إذ يحس أن البلاد التي يتخذها نموذجا يحتذى في التعليم لا تؤخر البدء بتعلم اللغات الأجنبية إلى هذا الحد يبادر ببيان الفرق بيننا وبينهم فيلخصه في أمرين :

" . . أحدهما أن للصبية الأوربيين من دورهم ومنازلهم وبيئاتهم خارج المدرسة مدارس يتعلمون فيها لغتهم الوطنية ويشقون فيها بثقافتهم القومية . . والأمر الثاني أن بين اللغات الأوربية - مهما تختلف - من التوافق والتقارب خطأ يختلف قوة وضعفا باختلاف منازل بعضها من بعض ، ولكنه على كل حال يبسر درسها على الصبية الأوربيين " (ص ٢٦٠ ، ٢٦١)

وقد يجادل الناس طه حسين في أمر تعلم اللغات الأجنبية هذا ، وبخاصة في أمر الزمن الملائم من عمر التلميذ الذي ينبغي أن يبدأ فيه هذا التعلم ، فقد يقال إن البدء المبكر هو الضمان لتجويد اللغة الأجنبية ، وإن تعلم التلميذ إياها مع اللغة العربية لا يضعف أمر العربية بل قد يقويها بتنمية المهارات اللغوية لديه .

وقد يقال : كيف يبدو طه حسين - من

ناحية - راغبيا فى الاعتراف من اللغات الأجنبية بعدم قصرها على لغة أو اثنتين ، ويبدو - من ناحية أخرى - راغبيا فى تأجيل تعلمها ؟ وهل يمكن أن يزدحم وقت قصير بتعلم لغات عدة ، ثم تتحقق نتائج مرضية ؟ إن الناظر فى حال تعلم اللغات الأجنبية الآن يعلم أن حالها آل إلى مجرد "شكليات وقشور" (لا يستثنى من ذلك حالها فى أقسام اللغات ذاتها ، بل وفى الكليات التى تجعل وسيلة التدريس بها اللغة الأجنبية) . وأنا لا أقول إن هذا راجع إلى خطة طه حسين فى تعلم اللغات الأجنبية ، فأنا لست واثقا من أنه أخذ بها ، ولكن الذى لا شك فيه أن أمر تعلم اللغات لا يزال عقبة فى طريق تقدم التعليم ، وأن هذا الأمر ينبغى أن ينال أقصى الاهتمام فى كل مراجعة أو نظر فى أمر التعليم المصرى والثقافة المصرية .

أما حال اللغة العربية فأشق تناولا فى كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " . وتبدأ معالجته بموضوع بديهى هو بيان أهمية اللغة العربية . وسوق طه حسين أدلة على أهمية اللغة العربية بعضها منطقى ، وبعضها عاطفى ، وبعضها عملى ، ولا يشير أى منها كبير

خلاف ؛ فاللغة العربية لغتنا الوطنية ، وهى اللغة التى نفكر بها ، وهى لغة الدين ، وهى لغة الماضى بما يحمل من تراث وتقاليد ، وهى لغة الأجيال القادمة إلى آخر هذه المسلمات . وما يكاد طه حسين يقنعنا بأهمية اللغة العربية ، ووجوب بذل أقصى جهد فى العناية بها ، حتى يشن حملة شعواء على مؤسستين تعليميتين ارتبط اسمهما بتعليم هذه اللغة ودراستها هما الأزهر ، ودار العلوم . وخلاصة ما يراه فى هذا الصدد أن أيا من المؤسستين لم تعد قادرة على حمل مسئولية تطوير اللغة العربية . يقول طه حسين : " اللغة العربية ليست ملكا لرجال الدين . . يتصرفون وحدهم فيها ، ولكنها ملك للذين يتكلمونها جميعا من الأمم والأجيال ، وكل فرد من هؤلاء الناس حر فى أن يتصرف فى هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التى تبيح له هذا التصرف " (٣٠٧) تلك هى اللهجة الخفيفة (نسبيا) التى يرفض بها طه حسين أن يكون الأزهر وصيا على تعليم اللغة العربية والاضطلاع بتطويرها . ولكنه - إذ يمضى فى شرح الموضوع - يكشف عن جوانب من نقصان " مؤهلات " الأزهر التى تجعله عاجزا عن النهوض باللغة العربية :

" فالأزهر لا يعرف من تطور اللغات الأجنبية حديثها وقديمها شيئا ، بل هو لا يكاد يعرف من هذه اللغات نفسها شيئا . والأزهر يجهل اللغات السامية جهلا تاما . والأزهر لا يكاد يتجاوز كتبه المعروفة العقيمة إلى كتب القدماء فى اللغة وآدابها وعلومها إلا قليلا ، وهو مع ذلك يريد أن يشرف على علوم اللغة العربية ، ويقوم دونها ، ويحول دون إصلاحها " . (ص ٢٣١)

تلك هى قواعد " الهجوم " الذى يطوره طه حسين على الأزهر ، وينتهى به شاملا مريرا ؛ فهو ينتقل به من الكلام على عدم صلاحيته لتدريس اللغة العربية إلى وجوب تطويره ، وتحديثه ، واتصاله بالواقع ، ويوجه إليه - فى خلال كل ذلك - اتهامات أقل ما توصف به أنها تعنى عدم الصدق مع النفس :

وليس من الخير أن يكون الأزهر حربا على الحياة الحديثة ، فإن هذه الحرب لا تجدى ولا تفيد . وإنما الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفا للحياة الحديثة ، مخففا لأثقالها ، ملائما بينها وبين ما ينهى الله عنه من الشر والمنكر . وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحيونها ، وأتقنوا العلم بأسرارها ومشكلاتها وما تجر على الناس

من شر ، وما تدفعهم إليه من إثم . وسبيل ذلك أن يشقف الأزهر بالثقافة الحديثة ، كما يشقف بها غيره من المعاهد ، وأن يمتاز بعد هذا بما لا تمتاز به المعاهد الأخرى من هذه الثقافة الدينية الخالصة ، بحيث إذا اتصل رجاله بطبقات الناس لم يناقضوهم ولم يباينوهم ولم يجدوا مشقة فى الوصول إلى قلوبهم والانتحاء إلى نفوسهم ، والتأثير فى هذه النفوس ، وتلك القلوب " (ص ٤٣٧)

ويبلغ طه حسين فى هجومه على الأزهر مداه حين يتهمه بالتظاهر باصطناع الحياة الحديثة ليصل إلى السيطرة على الحياة بطرق غير صحيحة :

" وهذا يقتضى أن يعدل الأزهر عدولا تاما عما دأب عليه من الانحياز إلى نفسه والعكوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة ، ويتصل بالحياة العامة ، ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها . وهذا صحيح فى ظاهره ولكنه فى حقيقة الأمر غير صحيح ، فالأزهر ما زال منحازا إلى نفسه ، مستمسكا بهذا الانحياز حريصا عليه . وهو من أجل هذا الانحياز نفسه يريد أن يتصل

بالحياة العامة على النحو الذى نراه الآن .
يريد أن تكون له نظمه الخاصة ، وإجازاته
الخاصة ، وطرقه الخاصة فى الحياة والتعليم ،
ويريد مع ذلك أن يفرض على الحياة العامة
فرضا ، وأن يفرض نفسه باسم الدين . وما
هكذا يكون الاتصال الصحيح بالحياة العامة
والاشتراك فيها " (ص ٤٧٤ ، ٤٧٥)

وقد كان لطف حسين نظرة تحذيرية تنبأت بما
آل إليه الحال فى الأزهر . لقد حذر من الصدع
الذى سيتربى على عدم إدماج برامج التعليم
، وعدم توحيد الأمة على نهج تعليمى واحد ،
وحذر من استقلال الأزهر بمؤرخيه وجغرافيينه
وعلمائه وقانونيينه ، بل أطبائه ومهندسيه .
ولكن الأمر جرى على ما خافه طه حسين ،
ونحن نعيش منذ زمن طويل الآن حياة " جامعة
الأزهر " . وهناك شكوى ليست خافية ترتفع
من داخل هذه الجامعة ذاتها - وبخاصة من
داخل الكليات العملية - من تدهور الحالة
التعليمية المترتبة على قصر القبول فى جامعة
الأزهر على طلاب التعليم العام فيه .

يقول طه حسين : " فإذا أرادوا أن يعلموا
اللغة العربية مثلا فطريقهم إلى ذلك الآن دار
العلوم وكلية الآداب ومعهد التربية ، لا كلية

اللغة العربية الأزهرية ، وإن أرادوا أن يعلموا
التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الكيمياء
فطريقهم إلى ذلك كلية الآداب وكلية العلوم
ومعهد التربية . وإن أرادوا أن ينهضوا بأعباء
القضاء أو الطب أو الهندسة فطريقهم إلى
ذلك كلية الحقوق والطب والهندسة . فاما أن
تنشأ فى الأزهر كليات وأن تمنح هذه الكليات
درجات لا علم للدولة بها ولا سلطان للدولة
عليها ، ثم يفرض المتخرجون فى هذه الكليات على
الحياة العامة فرضا فهذا هو الذى لا يفهم ولا يمكن
أن يساغ فى بلد متحضر " (ص ٤٧٧ / ٤٧٨)
أما دار العلوم فيقول طه حسين إنها أنشئت
أصلا لتوائم بين موقفين متناقضين أدركهما
المشرع لشئون التعليم العصرى فى مصر منذ
البداية : أحدهما وجوب أن يكون معلم اللغة
العربية مؤهلا بطريقة علمية تشبه الطريقة
التي يتأهل بها غيره من مدرسى مواد العلم .
(ولم يكن هذا يتوفر للأزهر الذى كان مهيمنا
على تعليم اللغة العربية آنذاك) والآخر الصلة
التي لا يمكن أن تنكر بين اللغة العربية والدين
. وقد رأى المشرع - إزالة لهذا التناقض -
إنشاء مدرسة عليا تكون " صلة ما بين الأزهر
وبين الحياة ، يؤخذ فيها طلاب أزهريون قد تثقفوا

إلى حد حسن بالثقافة العربية الإسلامية ثم
يثقفون من أصول العلوم المدنية وفروعها بمقدار
معقول ، ثم يكلفون تعليم اللغة العربية في
المدارس العامة " (ص ٣ ، ٣٧٣)

ولكن دار العلوم لم تحقق - فيما يرى طه
حسين - الغاية التي أنشئت من أجلها ؛
"فالإنتاج الأدبي الذي تعتمد عليه نهضتنا
المصرية الحديثة قليل التأثير جدا بهذه المدرسة" ،
ودار العلوم " لم تنجح فيما كان ينبغي أن
تنجح فيه من تجديد علوم اللغة العربية . .
وإنما نجحت في الاختصار والاختزال " ، وهي
لم توفق إلى ما كان ينبغي أن توفق فيه من
تجريب اللغة العربية إلى نفوس التلاميذ " ،
وهي قد " أعرضت عن تعمق العلوم الإسلامية
كما يفعل الأزهريون وهي لم تستطع أن تتعمق
العلوم المدنية الحديثة كما تفعل المدارس
العامة " (ص ٣٥٧ / ٣٧٨)

ويقترح طه حسين علاجا لحالة دار العلوم أن تضم
إلى الجامعة فتكون " في الجامعة المصرية مدرسة
اللغة العربية واللغات الشرقية ، بمكان يشبه مكان
مدرسة اللغات الشرقية من جامعة لندن " (ص ٣٥٧ /
٣٧٨) وقد ضمت دار العلوم إلى الجامعة -
استجابة لاقتراح طه حسين أو لغيره - وذلك

منذ سنة ١٩٤٦ ، ولكن السؤال الآن هو : هل
صلح حال اللغة العربية بهذا الانضمام ؟ يبدو
أن المشكلة أبعد من أن يحلها قرار إداري
يصدر هنا أو هناك .

يريد طه حسين أن يبدأ إعداد مدرّس اللغة
العربية منذ أول التعليم الثانوي (وينبغي أن
نستحضر أن التلميذ قضى فترة التعليم
الإلزامي ، وأربع سنوات أخرى ، يتعلم
بالعربية وحدها) ، ويريد أن يكون ذلك في
تخصصين هما فقه اللغة ، ويضم إلى العربية
فيه اللغات السامية كما سبق ، والآخر آداب
اللغة ، ويكون الاستعداد له بضم اللغة
الإيرانية (كذا) . ولكن السؤال هو : أي
نوع من العربية ذلك الذي يريد له طه حسين
التقدم والازدهار ؟ هنا يبدو - على غير ما
قد يتوقع غلاة الفصحى والأزهريون بخاصة -
حريصا على الفصحى ليس غير ؛ ويضيف :
"نعم وأحب أن يعلم المحافظون عامة
والأزهريون خاصة - إن كانوا لم يعلموا بعد -
أنى من أشد الناس ازورا عن الذين يفكرون
في اللغة العامية على أنها تصلح أداة للفهم
والتفاهم ، ووسيلة إلى تحقيق الأغراض
المختلفة لحياتنا العقلية (٣١٤) وهو يشفع ذلك

بهجوم على العامية تزيل من النفوس كل أثر بأنه من المتعاطفين معها : " لم أومن قط ولن أستطيع أن أومن بأن للغة العامية من الخصائص والمميزات ما يجعلها خليفة بأن تسمى لغة ، وإنما رأيتها وسأراها دائما لهجة من اللهجات قد أدركها الفساد فى كثير من أوضاعها وأشكالها ، وهى خليفة أن تبنى فى اللغة العربية الفصحى إذا نحن منحناها ما يجب لها من العناية فارتفعنا بالشعب عن طريق التعليم والتثقيف ، وهبطنا بها هى عن طريق التيسير والإصلاح إلى حيث يلتقيان فى غير مشقة ولا جهد ولا فساد " (ص ٣١٤ / ٣١٥)
أما طريق هذا الإصلاح والتيسير فسبيله تحطيم أسطورة النحر ، " ومن أقبح الخطأ وأشنع أن نظن أن إتقان النحر يمكن من إتقان اللغة " ٣٣ على أن الإصلاح ينبغى أن يمتد إلى الصرف والبلاغة وتيسير أمر القراءة والكتابة . على أنه حريص فى تلك النقطة الأخيرة بالذات على ألا يظن به الذهاب إلى حد تبني فكرة استخدام الحروف اللاتينية فى الكتابة : " أحب أن يعلم المحافظون أنى قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية " (ص ٣٢٨) وحد الإصلاح

لديه هو تقريب اللغة العربية من الحياة الحديثة ، وعدم إهدار هويتها الأصيلة ، وتيسير قواعدها ورموزها على نحو يصلها بالحياة ، ويجعل منها وسيلة صالحة لحمل ثقافة العصر ، ومساعدة الشعب على الترقى فى درج الحياة العصرية .

تنساب الأفكار بنعومة فائقة فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » مازجة بين « التعليم » فى جسم واحد متكامل ، تفضى أعضاؤه بعضها إلى بعض . وهناك أدوات حيوية يكتمل بها هذا الجسم الكلى ، يجرى فى مقدمتها - عند طه حسين - إنشاء " المعهد العلمى المصرى " الذى يناط به تشجيع البحث العلمى ، وتنظيم الهيئات الأدبية والفنية . وثمة نموذج صالح للاحتذاء هنا هو المعهد العلمى الفرنسى (والواقع أن النموذج الفرنسى الصالح للاحتذاء هو أول شئ يجرى إلى ذهن طه حسين كلما كان ذلك لازما) :

" فإننى لا أبتكر هذا النحر من النظام الذى أقترحه ابتكارا ، ولا أختصره من عند نفسى ، وإنما أنقله من الحياة الأوربية نقلا أتوخى فيه ملاءمة البيئة المصرية الخاصة وما يمكن فيها وما لا يمكن " (ص ٤٩٤)

ومن شأن هذا النظام المقترح أن يوثق
الرابطة بين ما لدينا وما وراء الحدود . ولن
يتأتى ذلك - بالطبع - إلا بترجمة الآثار ذات
الأثر البعيد فى النهضة الثقافية فى العالم .
ولموضوع " الترجمة " فى كتاب " مستقبل
الثقافة فى مصر " حديث غير قصير . وهو
يبدأ بإبداء الحسرة على جفاف حياتنا الثقافية
نتيجة نقص الترجمة عن الغير أو انعدامها .
ويغلف الحديث بالسخرية من النفس ؛ فنحن
نتحدث عن مجد العرب الأولين لأنهم " أقبلوا
فى شره رائع على آثار الأمم المتحضرة " ،
ونظل بعد ذلك خامدين جامدين " ، والآثار
العلمية والفنية تزيد وتزيد ، والعقول الأوربية
والقلوب الأوربية تستمتع ، والحضارة الأوربية
ترقى ، ونحن مستمتعون بما نحن فيه من
العجز والقصور " (ص ٤٩٦ / ٤٩٧)
إن الصورة الثقافية المرسومة لهذه النقطة
قائمة جدا ؛ فاللغات التى تستحق الترجمة
عنها يجهلها معظم الناس ، والقلّة التى
تعرفها لا تقرأ ما يذاع فيها من علم وأدب .
والنتيجة أننا لا نترجم . وكيف نترجم إذا كنا
لا نقرأ ؟ وكيف نقرأ إذا لم نكن مثقفين ؟
وينشأ عن هذا كله خطر عظيم جدا ، وهو أن

الذين يقرءون ويكتبون يجهلون الحضارة
الحديثة. ويتجلى هذا الخطر على نحو أعظم
حين ينشعب المثقفون (الأولى أن يقال المتعلمون !) :
" قلة ضئيلة تعرف بعض اللغات الأوربية ولا
تقرأ فيها ، وهى مع ذلك تتمدح وتستطيل
وترى نفسها ممتازة ، وكثرة تجهل اللغات
الأوربية جهلا تاما ولا تجد من التراجم ما
يضع عنها إصر هذا الجهل ، فتزدرى أوربا
وتزدرى حضارتها وتزدرى من يعجبون بأوربا
وحضارتها " (٤٩٨) هذا تحليل واقعى
صحيح للوضع ، وهو لا يزال يحكم حياتنا
الثقافية حتى اللحظة الراهنة ، بل إنه ليزداد
سوءا على مدى الأيام . وهو صحيح بشقيه
للذين عبر عنهما طه حسين ؛ قلة تتشدد
بأوربا على غير معرفة ، وقلة تزدرى أوربا
على غير معرفة ، ولا شئ أسوأ من هذا يمكن
أن يحدث فيقف حجر عثرة فى طريق نضج
الهوية " الثقافية للأمة .

يقول طه حسين : " فلنترجم إذن ولنكثر من
الترجمة " ، ويدعو إلى انشاء " مكتب
الترجمة " فى وزارة المعارف ، مؤكدا أنها
الوسيلة التى تدفع الشباب إلى التقليد
والمحاكاة ، وهما من أرقى عناصر الحياة

العقلية وأقواها ؛ فالترجمة عنصر " سيغنى اللغة ويحييها ، وسيغذى العقل المصرى وينميه ، وسينشر الثقافة ويذيعها ، وسيقرب بين الطبقات المختلفة فى الشعب ، وسيحقق الكرامة القومية التى تريد أن ترتفع عن الجهالة والغفلة ، وألا تكون صفوتنا دون غيرها من صفوة المثقفين فى الأمم الأخرى ، وألا تكون عامتنا دون غيرها من عامة الناس فى الأمم الأخرى أيضا " (٥٠٠ / ٤٩٩)

استحدثت وسائل أخرى - إلى جانب الكلمة المكتوبة - للثقافة هى الصحافة والإذاعة والسينما والتمثيل (ولم يكن التلفزيون أو الكاسيت أو الفيديو أو الكمبيوتر قد استحدث فى مصر أو زاحم الكتاب لذلك الحين) ، فما موقف كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " من هذه المستحدثات ؟ وكيف نستغلها فى التقدم الثقافى ؟ الأصل فى هذه المستحدثات - عند طه حسين - أنها خطر على الكلمة المكتوبة ، ولكن حالتنا التى تنفش فيها الأمية ، فلا يقرأ الناس كثيرا الكلمة المكتوبة ، حالة خاصة تحتم علينا أن نستخدم هذه المستحدثات لصالح القضية . ولا أقل من أن نشجع الاستفادة من الصحافة

بلغتها السهلة وإغرائها ، وأن نأخذ بطرف من ثقافة الراديو ، ولكن الحيلة من أخطارهما واجبة ، فلا بد من إنشاء لجان (ثقافية وليست سياسية أو أمنية) تراقب هذه الوسائل ، وتوجهها لصالح الثقافة ، وبخاصة فيما يتصل بالسينما ، والتى تفد من الخارج ، وتتهدد فن التمثيل لدينا ، وهو فن يجب أن ينال أقصى العناية لما له من فوائد تعليمية وثقافية .

ولن يكتمل الوضع إلا بأن تنشر مصر مظلة التعليم فيها على ما حولها من البلاد ، وذلك بتصدير النموذج التعليمى المصرى إلى بلاد الشرق العربى . وهذه النقطة تعيد إلى الأذهان من جديد مصطلح " الشرق " و " الغرب " . فقد اتضح أن الشرق الذى يقول طه حسين إن مصر ليست جزءا منه لا يمكن أن يكون هو الشرق العربى ، وكيف يمكن أن يكون كذلك إذا كان هو يسعى إلى أن يكون هذا القسم من العالم وحدة تعليمية ثقافية تظلها المظلة المصرية ؟

لقد هاجم طه حسين " الكرم المصرى " (يقصد البخل المصرى) فى إنشاء المدارس المصرية خارج الحدود ، وقارن بين حالنا وحال

أوريا فى رعاية الطلاب الأجانب ، موضحا أن أوريا حين تفعل ذلك لا تفعله من أجل هؤلاء الطلاب ، وإنما من أجل نفسها . ونحن لا نتطلع إلى خارج الحدود " فى فرنسا أو إنجلترا أو إيطاليا ، ولكن من حقنا أن ننشئ المدارس المصرية فى البلاد العربية " . وإدارة هذه المدارس يجب ألا تكون وقفًا على المصريين ، بل ينبغى أن يكون لأبناء هذه البلدان فيها نصيب ، وبالمثل فإن مناهجها ينبغى ألا تكون وقفًا على ما يتصل بمصر من معلومات . والقادرون مدعوون إلى الإسهام فى هذه المدارس . وليست المدارس وحدها هى التى يهتم بها طه حسين فيما وراء الحدود ، فالتعليم الجامعى ، والبرامج الثقافية نصيب من هذا الاهتمام . (الفصلان ٥٧ ، ٥٨ من الكتاب)

ما الثقافة المصرية ؟ وما عسى أن تكون ؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه الكتاب فى نهاية المطاف . وهو يبدو مطمئنًا جازمًا فى أن لنا ثقافة مصرية خاصة تقوم على وحدتنا الوطنية ، وتتصل بنفوسنا المصرية الحديثة ، كما تتصل بنفوسنا المصرية القديمة . وهى ثقافة تصور آمالنا ومثلنا العليا ، وترى واضحة فى هذا الذوق المصرى الذى " ليس ابتسامًا خالصًا ولا

عبوسًا خالصًا " . وهى ثقافة تجمع بين الجدة والقدم ، وتقوم على الاعتدال " الذى يشترى من اعتدال الجور المصرى " . ومن شأن هذا أن يجعل الطبيعة المصرية طبيعة معتدلة لا تسرف فى المحافظة ولا تسرف فى التجديد . هذه الثقافة المصرية هى تلك اللغة العربية المصرية الرشيقة التى لا تنبو عن الذوق ولا تتجافى عن الطبع ، وهى ذلك التراث المصرى القديم ، وذلك التراث العربى الإسلامى ، وذلك الذى كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ثمرات الحياة الأوربية الحديثة :

" هى هذه العناصر المختلفة المتناقضة فيما بينها أشد الاختلاف والتناقض . تلتقى فى مصر فيصفى بعضها بعضًا ، وينفى بعضها من بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التى لا تلائم النفس المصرية ، ثم يتكون منها هذا المزاج النقى الرائق الذى يورثه الآباء للأبناء وينقله المعلمون إلى المتعلمين " (ص ٥٣٣)

ويمكن أن يقال - بتسرع - إن هذا الوصف - الذى يقدمه طه حسين - إنما هو كلام عام " إنشائى " لا يصنع ثقافة أو يشكل حضارة ، ولكن لا بد أن يقال أيضا فى النظر المتشد إنه وصف صحيح لحالة معنوية لا يمكن التعبير

عنها بأحسن من هذا . وهى حالة قد تبدو غائبة أحيانا ، ولكن اختفائها تحت السطح - لظروف مؤقتة أو خاصة - لا يعنى عدم وجودها ؛ فمصر (الثقافة) حقيقة واقعة ، وإلا فكيف استطاعت أن تعيش (متميزة) كل هذه القرون ؟ وإذا كان هذا الكلام إنشائيا فإنه الإنشاء الرقيق الصافى . والواقع أن أسلوب الكتاب يرق ويصفو كله نحو نهايته ، فيرى فى ختامه أشبه بالحلم المترائى فى حالة بين اليقظة والنوم ، ولذا فإنه يمكن القول إن الكتاب هو نوع من العمل " الإبدعى " الذى يخلق حالة ذهنية ونفسية تلخص حلم رائد من رواد التنوير وصانع من صناع مصر الحديثة . وهذا الحلم يكشف عن نفسه صراحة فى آخر فقرة من فقرات الكتاب ، وهى فقرة شاعرية تمضى على النحو التالى :

" هذا حلم رائع جميل تمضى فيه نفس هائلة تحب مصر وأهل مصر فى هذا الأفق الغريب الجميل من آفاق الألب ، ولكنه حلم يسير التحقيق قريب التعبير . فإن مصر التى انتصرت على الخطوب ، وثبتت للأحداث ، وظفرت بحقها من أعظم قوة فى الأرض فى هدوء وأناة وثقة بالنفس وإيمان بالحق ، خليفة

أن تنتصر على نفسها وتظهر على ما يعترض طريقها من العقاب وترد إلى نفسها مجدا قديما عظيما لم تنسه ولن تنساه " (ص ٥٣٦) يصف كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " - بكل ماله وما عليه - موقف طه حسين المبدئى المطرد بصفته نصيرا للحداثة ، وداعية من دعاة التجديد . وهو بهذا الاعتبار يتكامل مع أعمال أخرى له يقف فيها إلى جانب الجديد ؛ فما من حال يضطرع فيها القديم والجديد (واصطراعهما طبيعى ومحتوم) إلا ونجد طه حسين يقف إلى جانب الجديد . ذلك أن انتصار القديم على الجديد - فضلا عن أنه غير طبيعى - يعنى لديه التخلف والجمود ، على حين أن انتصار الجديد (فضلا عن أنه طبيعى) يعنى لديه الثورة التى تتحول فى مجرى الزمن إلى واقع ثقافى جديد .

على أن الجديد الذى يقف إلى جواره طه حسين ليس الجديد المطلق وإنما الجديد النسبى . والواقع أنه لا يمكن أن يوجد جديد مطلق ، وإذن فالتسمية الأولى هى " التجديد " الذى هو عملية مركبة يدخل ضمن عناصرها القديم ذاته . ذلك هو موقف دعاة " التنوير " الذين يحرسون مسيرة الحياة نحو التقدم ، ويحفظونها

من أن تقع فى الزلل بتعبيدها بالقديم ، أو
يقفزها فى الظلام نحو جديد مطلق لا يتصل
بالواقع - أو بطبيعة الأمور - فى شئ .

ومن التبسيط المخل للأمور أن يقال إن طه
حسين فى نظريته فى " مستقبل الثقافة فى
مصر " مجرد ناقل لنظرية بول فاليرى التى
حلل فيها عناصر العقل الأوربى إلى العنصر
الإغريقى ، والعنصر الرومانى ، والعنصر
المسيحى . حقا لقد رد طه حسين عناصر
العقلية المصرية الجديدة إلى ثلاثة عناصر هى
النموذج الأوربى ، والتراث العربى الإسلامى ،
والشخصية المصرية الخالصة ، ولكن ذلك لا
يمكن أن يكون نقلا لنظرية فاليرى ؛ ذلك لأن
العبرة فى هذه الحالة ليست برسم الإطار
الخارجى ، وإنما هى بتشكيل المادة التى تنتظم
فى هذا الإطار ، والواقع أن النظرية فى
النهاية تنبثق عن طبيعة هذه المادة المشكلة ،
والأطر الخارجية لا يمكن أن تصنع نظرية على
الإطلاق . وقراءة الكتاب تعلن عن أن طه
حسين يستقى مقدماته ونتائجه ، ومشكلاته
وحلوله ، من تربة محلية خالصة ، ومن حياة
يومية تعج بالمشكلات النابعة من تلك التربة .
ويبقى أن نقول إن طه حسين قد عاش حتى

شهد تداعى حلمه الثقافى ، والتخبطات التى
صحبت محاولة تطبيقه على التعليم المصرى .
وقد صرح قبيل وفاته بأنه يود لو يكمل
كتاب " مستقبل الثقافة فى مصر " ولا أدرى
أى طريق كان سيسلك لو فعل ذلك . ولقد
بالغ طه حسين حين ولى وزارة المعارف فى أمر
" مجانية التعليم " ، وربما كان لذلك أسباب
قد تتجاوز البنود الفكرية لكتاب " مستقبل
الثقافة فى مصر " إلى ظروف اللحظات
السياسية التى كان يحياها داخل الوزارة .

ليت شعرى ماذا كان يكون موقف طه
حسين لو شهد حالة التعليم المصرى اليوم ،
وما يعج به واقعه من مشكلات ، بعضها
متعلق بالكتاب المدرسى (وقد قطعت الوزارة
فى احتكاره شوطا طويلا) ، وبعضها خاص
بالأزهر (وقد استقل بطلابه ومعاهده وكلياته) ،
وبعضها خاص بدار العلوم (وقد مضى على
انضمامها إلى الجامعة أكثر من أربعين عاما .
شهدت تدهور حال مدرس اللغة العربية على
نحو مطرد) ، وبعضها خاص بأمر اللغات
الأجنبية (التى تتسابق المدارس فى تعليمها
منذ الحضنة وتسمى نفسها " مدارس اللغات ")
فى حين يتدهور حالها أيضا باطراد) . لقد